قيم الأخلاق الكبرى
في شعر أبي تمام

د. خالد بن فهد بن موسى البهلال[1]

المستخلص

موضوع البحث: قيم الأخلاق الكبرى في شعر أبي تمام.

ويهدف لدراسة قيم الأخلاق وتطبيقها على شعر أبي تمام.

ومنهج البحث: المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي.

وأهم نتائج البحث: معرفة مفهوم القيمة، وأنه طريقة في الوجود أوفي السلوك، يعترف بها شخص أو جماعة، وأنها ذات طابع خاص يحوي ميزاً ثابتةً، اكتسبت تقدير الناس وإعجابهم، وأن القيم القيّمة التي تأصلت في النفس الإنسانية هي التي تجعل لحياة الإنسان معنى كريماً، وتضع له هدفاً سامياً يسعى لتحقيقه في ظل نواميس معيّنة، ولولا وجود تلك القيم لما بلغت الإنسانية ما بلغته حتى يومنا هذا، فهناك معايير أخلاقية، وقيم كريمة اصطلح الناس عليها، وتحاكموا إليها، لها تأثير بالغ في الرفع من شأن الفرد أو الجماعة، وجماع هذه الفضائل العقل والشجاعة والعدل والعفة والكرم والغيرة والصبر، وتطبيقها على شعر أبي تمام.

[1] أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية، في كلية التربية في جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز في الخرج.
حصل على درجة الماجستير في كلية اللغة العربية في جامعة أم القرى في مكة المكرمة، وعنوان الأطروحة: شرف المعنى عند المتنبي.
حصل على درجة الدكتوراه في كلية الآداب في جامعة الملك سعود في الرياض، وعنوان الأطروحة: أنماط بنى التشكيل الجمالي للمدينة في الشعر العباسي.
البريد الالكتروني: khfb@hotmail.com

ويوصي الباحث بتسليط الضوء على القيم الأخلاقية في شعر العرب، وإبرازها بثوب قشيب، فقد جاء رسولنا الكريم ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق، كما يوصي بتقديم دراسات مستفيضة حول أصول الأخلاق وفروعها، مع استدعاء الشواهد والمثل من أشعار العرب في مختلف عصورهم الشعرية، وتناول هذه المواد الشعرية بما يشبع نهم القارئ، ويروي غليله، فأشعار العرب تحوي مادة غزيرة من الفخر بمكارم الأخلاق والتمدح بها والثناء على ذويها.

الكلمات المفتاحية: أبو تمام، القيمة، العقل، الشجاعة، العدل، العفة.

Abstract

Research topic: The Great Moral Values in Abu Tammam's Poetry

It aims to study moral values and their applications in Abu Tammam's poetry, through descriptive, inductive and analytical application.

The most important results of the research: It states the concept of value as a way of existence or orientation that is adapted by a person or group, containing fixed features that have gained people's appreciation and admiration. Great moral values that are rooted in the human soul are what give a man's life a noble meaning, and set for him a lofty goal that he seeks to achieve under certain laws. Without the existence of those values, humanity would not have achieved what it has achieved. Today, there are moral standards and noble values that people have agreed upon and are judged by, which have a significant impact on raising the status of the individual or group. The combination of these virtues is represented in reason, courage, justice, chastity, generosity, zeal, and patience, and their application to the poetry of Abu Tammam.

The researcher recommends shedding light on the moral values in Arab poetry and highlighting them. Our Noble Prophet, peace and blessings of Allah be upon him, came to perfect the virtues of morals. The researcher also recommends providing extensive studies on the origins of morals and its branches by recalling evidence and proverbs from Arab poetry in their various poetic eras and dealing with these poetic materials in a way that satisfies the reader's hunger and quenches his thirst. Arab poetry contains abundant material of pride in good morals, praise of them, and praise of those who have them.

Keywords: Abu Tamam, value, reason, courage, justice, chastity.

المقدمة

هناك معايير أخلاقية، وقيم كريمة اصطلح الناس عليها، وتحاكموا إليها، لها تأثير بالغ في الرفع من شأن الفرد أو الجماعة؛ متى تم تمثلها أو تمثل شيء منها، وذلك ليس خاصاً بالفرد فحسب، بل يتجاوزه إلى الجماعة، أو العشيرة، أو القبيلة، أو الأمة.

إن القيم الخلقية نوعان: قيم إيجابية، وقيم سلبية، وبضدها تتميز الأشياء، أما القيم الخلقية العليا فهي غاية ينشدها أفاضل الناس، وتتميز بها كرام الأمم، فهي تمثل في حياة الإنسان حفظ التوازنات الحياتية، وأما القيم السلبية فهي من مرذول الأخلاق وذميم الصفات التي تنفر منها الطباع الكريمة، وتعيبها النفوس السليمة.

وهذا البحث "قيم الأخلاق في شعر أبي تمام" يتناول أصول الأخلاق، ويبرز سامي المثل، ويعرِّف بها، ويستدعي الشواهد الداعمة لها من شعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي.

أهداف البحث

تبيين أهمية القيم الأخلاقية ومفهومها الذي اصطلح عليه علماء السلوك، مع الاستشهاد بأمثلة على قيم الأخلاق التي وظفها حبيب بن أوس الطائي في قصائده الشعرية.

مشكلة البحث وتساؤلاته

تتمثل مشكلة البحث في دراسة أثر قيم الأخلاق في شعر أبي تمام، والأبيات التي عبر فيها عن هذه القيم، بما يساعد على فهم هذه القيم، ويبين شريف قدرها، وأهمية استخدامها في الشعر وتوظيفها التوظيف اللائق بها، وقد وقع الاختيار على أبي تمام؛ لأنه صاحب مذهب جديد في الشعر، وقد قامت خصومة حوله، وله اختياراته المشهورة بالحماسة، ويستشهد بها المفسرون في تفسيرهم للقرآن العزيز.

الدراسات السابقة

أما الكتب التي تناولت أهمية القيم الأخلاقية، فكثيرة ومن ذلك كتب السلوك، ككتاب الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين للدكتور عبد العالي حمدي، والقيمة الأخلاقية د.عادل العوادي، وكتاب النقد الأخلاقي لنجوى صابر، وكتاب القيم العربية الأصيلة من شعرنا القديم للدكتور عبدالله جبريل مقداد، أما تطبيقها على شعر أبي تمام فإني لم أجد من تناول هذه القيم الأخلاقية في شعر أبي تمام بدراسة مستقلة.

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث بجدته ولطافته، إذ لم أجد من تناول هذا النوع من الموضوعات المهمة لدى الشاعر، فهو يبرز سامي المثل، ويعرِّف بها، ويستدعي الشواهد الداعمة لها من شعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي.

منهج البحث

تم استخدام المنهج الوصفي في تحرير مصطلح قيم الأخلاق، ومعرفة أقسامه التي اصطلح علماء السلوك عليها، كما تم استخدام المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي من خلال استقراء ديوان أبي تمام للوصول إلى الشواهد المساندة لشريف القيم.

حدود البحث

التزم البحث توضيح مفهوم القيم الأخلاقية وأهميتها وبيان أصول الأخلاق التي حددها علماء السلوك، وتناول الجوانب الموضوعية المتصلة بمصطلح القيم الأخلاقية الذي تم اعتماده في شعر أبي تمام.

إجراءات البحث

بعد قراءة ديوان الشاعر تم جمع الأشعار التي فيها معان أخلاقية، ومن ثم تم تقسيمها

حسب المعاني التي تناولها الشاعر، فجاءت في عدة موضوعات اكتفيت بأهمها وأعظمها، وتم كتابة مقدمة لكل مبحث، وتعزيزه بالشواهد الشعرية من الديوان.

خطة الدراسة

تضمنت خطة البحث ما يلي:

هذه المقدمة.

تمهيداً تناول المدلول اللغوي للقيمة والمدلول الاصطلاحي.

مفهوم القيم الأخلاقية،

وعلى ضوء ذلك جاءت مباحث أربعة:

الأول: العقل في شعر أبي تمام.

الثاني: الشجاعة في شعر أبي تمام.

الثالث: العدل في شعر أبي تمام.

الرابع: العفة في شعر أبي تمام.

ثم **الخاتمة**، وتشمل أهم التوصيات.

ثم مكتبة المصادر والمراجع.

ثم فهرس الموضوعات.

التمهيد

مدلول القيمة اللغوي

هذه اللفظة أخذت من (قوم)، وقد استعمل جذرها للدلالة على معانٍ كثيرة، منها: الوقوف والانتصاب، والثبات، والاعتدال والاستقامة، يقال: فلان أقوم كلاماً من فلان، أي أعدل كلاماً، والقوام العدل، قوام كل شيء عماده، والقويم: المعتدل[١].

مدلول القيمة الاصطلاحي

لقد تناول عدد من الباحثين المعاصرين مفهوم القيمة من خلال دراساتهم المختلفة؛ فوصّف الاجتماعيون مفهوم القيمة بأنه (طريقة في الوجود أو في السلوك، يعترف بها شخص أو جماعة على أنها مثال يحتذى، وتجعل من التصرفات أو الأفراد الذين تنسب إليهم أمراً مرغوباً فيه أو شأنه مقدر خير تقدير)[٢]، فالقيمة ذات طابع خاص يحوي ميزاً ثابتةً، اكتسبت التقدير والإعجاب والثناء الجمعي من الناس، وقد أشار بعض العلماء والمؤرخين الذين عنوا بالدراسات الحضارية إلى بعض جوانب القيم، ضمن سياقات تناولهم للنظم والتقاليد العربية، وأوضحوا أنَّ مفهوم القيم يراد به السلوك الخلقي الذي يميز جماعة خلال فترة زمنية معينة، ويتمثل هذا السلوك بشكل عملي بالكرم والنجدة والحلم والعفة والصبر والوفاء[٣].

إن تلك القيم التي تأصلت في النفس الإنسانية، هي التي جعلت لحياة الإنسان معنى كريماً، ووضعت له هدفاً سامياً يسعى لتحقيقه في ظل نواميس معيّنة، سواء أكانت تلك القيم

(١) ابن منظور محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى، لسان العرب، دار صادر بيروت، في مادة (قوم): والقِيمةُ: واحدة القِيَم، وأَصله الواو لأَنه يقوم مقام الشيء، والقيمة: ثمن الشيء بالتَّقْوِيم.

(٢) مدخل إلى علم الاجتماع العام، مليحة عوني الصغير ود. معن خليل العمر، ص٩٣.

(٣) فجر الإسلام، أحمد أمين، ص ٧٨.

ناتجة عن عقله، أو خاضعة لأوامر ربه، ولولا وجود تلك القيم لما بلغت الإنسانية ما بلغته حتى يومنا هذا.

إن حسن الخلق من جليل الخصال وكريم الخلال، وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية أن حسن الخلق يرتكز على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر والعفة والشجاعة والعدل(١).

ونقل أبوحيان أن الفلاسفة قالت: فضائل النفس أربع، وفضائل الجسد أربع: للنفس الحكمة، وللجسد بإزائها التمام والكمال، وللنفس العدل، وللجسد الحسن والجمال؛ وللنفس الشجاعة، وللجسد القوة؛ وللنفس العفة، وللجسد الصحة(٢).

فالعلماء على تفضيل أربع قيم وتقديمها؛ لأنها جماع القيم الأخلاقية، وأسّها التي ترجع إليه، و"إنه لما كانت فضائل الناس من حيث هم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك، إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً، والمادح بغيرها مخطئاً"(٣).

إن هذه الفضائل الأربع يدخل في جملتها كل الفضائل، وقد يتفنن الشعراء في المديح بأن يصفوا حسن خلق الإنسان، ويعددوا أنواع الأربع الفضائل التي تقدم ذكرها، وأصناف تركيب بعضها مع بعض، وقليل من الناس من يدرك أن ذلك داخل في الأربع الخلال السالفة سواءً على الانفراد أو بالتركيب، إلا من كان من أهل الفهم، كأن يذكروا من أقسام

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، ٢/ ٣٠٨.
(٢) البصائر والذخائر، أبوحيان التوحيدي، ٦/ ٢٤٨.
(٣) نقد الشعر، ابن قدامة، ص٦٥-٦٦.

العقل: العلم والحلم والبيان ونفاذ المعرفة، والسياسة، والصدع بالحجة، وغير ذلك مما يوازي هذا ويجاريه.

ومن أقسام العفة: قناعة النفس، وعدم الشره، ونقاء اللسان وطهارة الإزار، وما أشبه ذلك.

ومن أقسام الشجاعة: حماية العرض والجار ومدافعة الصائل، وإدراك الثأر، والإثخان في العدو، وزرع المهابة عند الخصوم، والسير في القفار الموحشة، وما إلى ذلك.

ومن أقسام العدل: السماحة، والإنصاف المانع من الظالم والاعتساف، والتبرع بالنائل، وإجابة السائل، وقرى الأضياف، وما ماثل ذلك[١]، وكل واحدة من هذه الفضائل الأربع المتقدم ذكرها وسط بين طرفين مذمومين[٢]، فشأنها عند العربي شأنٌ عظيم، ومقامها مقام جسيم، وسنأتي على بيانها وضرب الأمثلة عليها من شعر أبي تمام رحمه الله.

مفهوم القيم الأخلاقية:

إن القيم الأخلاقية تختلف عما سواها من القيم، فالقيم المادية ترتبط بالأشياء وصفاتها، في حين ترتبط القيم الأخلاقية بالشخص الذي يحملها، فهو وحده يقدر أن يسلك سلوكاً أخلاقياً عندما يريد، ويعمل ويستهدف غايات، فينوي ويحقق، وهو يشعر بالقيم[٣].

وقد تبين أن المعنى الاصطلاحي للقيمة قد أخذ من معناها اللغوي، بكونها دالة على ثمن الشيء، وتحدد أيضاً مفهوم الأخلاق، وأنه يتضمن السلب والإيجاب؛ لذا كانت القيم الأخلاقية نوعين: إيجابية أو عليا، وسلبية أو سفلى؛ لأنها تقوِّم الخلق المتضمن هاتين الناحيتين.

(١) نقد الشعر، ابن قدامة، ص٦٧-٦٨.
(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق، ٢/ ٧٨٠.
(٣) القيمة الأخلاقية، العوادي، ص١١٣.

إن القيم الأخلاقية تبدو حاضرة في سلوك الإنسان، وهي التي تحدد اتجاه هذا السلوك، وترسم مقوماته، فالقيم من الأمور النسبية، لذا تتأثر سلباً وإيجاباً بظروف تخرج أحياناً عن إرادة الإنسان وطبعه الذي جبل عليه، فقد يكون من خلق المرء الصدق، لكنه يتخلف عنه لأمر ما.

ويمكن تحديد القيمة بأنها وزن خلق معين بمقياس أخلاقي معين، وإن اختلفت المقاييس الأخلاقية تبعاً لاختلاف الاتجاهات[1] إلا أنها تدور جميعها في حقلي الخير والمنفعة، أو الشر والضرر، فالفضائل والأخلاق المحمودة ثمارها جميلة وتعود على المتخلق بها بالراحة والمحبة والخير الكثير؛ لذا وصفت بأنها ذات قيمة نفعية، وعلى عكس من ذلك رذائل الأخلاق، ومقدار هذا النفع أو الضرر هو القيمة الفعلية للخلق المقوم، فتصنيف القيم إلى سامية وسافلة يكون وفق غايات هذه القيم، فقد يكون السارق كريماً، لكنه لا يتصف بالفضيلة؛ لأن ماله حرام، وقد يكون شارب الخمر عفاً، لكنه لا يوصف بذلك؛ لأنه لم يبتعد عن المحرمات، والخمر منها.

إن التعريفات الاصطلاحية للأخلاق قريبة من المعنى اللغوي إلا أنها تعددت نظراً لتضارب مفهوم الأخلاق بين الاتجاهات والمذاهب، فاختلف علماء الأخلاق والفلاسفة في صياغة تعريف لعلم الأخلاق، قال مسكويه: الخلق حال للنفس داعية لها أفعالها من غير فكر ولا روية[2].

وتبعه على هذا التعريف كثير ممن أتى بعده، ومنهم الغزالي، حيث قال: الخُلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سميت تلك الهيئة

(١) العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، محمد بيصار، ص٢٦.
(٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لابن مسكويه، ص٣٣.

خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً، وإنما قلنا إنها هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال على الندور، لحاجة عارضة، لا يقال خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ(١).

فقد ميز الغزالي رحمه الله بهذا التعريف الخُلق عن التخلُّق، أي السلوك المتكلف الذي لا يسمى خلقاً، حتى يصير عادة للنفس راسخة، ويعني بالعادة: تكرير فعل الشيء الواحد مراراً كثيرة، وزمناً طويلاً في أوقات متقاربة (٢)، كما أن الأفعال التي لا يترتب على فعلها مدح ولا ذم تخرج عن نطاق الأخلاق، فلا يوصف صاحبها بأنه شرير أو خير، فالذي يصدق مرة لا يوصف بأن خلقه الصدق، وبالمثل من يكذب مرةً لا يقال: إن خلقه الكذب، بل العبرة بالاستمرار في الفعل حتى يصير طابعاً عاماً لسلوكه(٣).

يقول أبو حيان التوحيدي: فإن الأخلاق بأجمعها ليست طبيعية، ولو كانت كذلك لما عالجناها، ولا أمرنا بإصلاحها، ولا طمعنا في نقلها وإزالتها إذا كانت قبيحة، ولكانت بمنزلة الحرارة والإضاءة في النار، وبمنزلة الثقل والارجحنان(٤) في الأرض، فإن أحداً لا يروم معالجة هذه الطبائع، ولا إزالتها ونقلها، ولكنا نقول: إنها - وإن لم تكن طبيعية - فإنها بسوء العادة، أو بحسنها تصير قريبة من الطبيعة في صعوبة العلاج، وإزالة الصورة من النفس، ولسنا نسميها خلقاً إلا بعد أن تصير هيئةً للنفس، يصدر أبداً عنها فعلٌ واحدٌ بلا روية، فأما قبل ذلك فلا تسمى خلقاً(٥).

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٣/ ٥٣.
(٢) العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، محمد بيصار، ص٢٠٢.
(٣) الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين، محمد عبد العالي، ص١٦.
(٤) قال صاحب اللسان في مادة "ارجحن": "ارْجَحَنَّ الشيءُ: اهتز. وارْجَحَنَّ: وقع بمرّة. وارْجَحَنَّ: مالَ .. الأَصمعي: المُرْجَحِنُّ المائل .. وارْجَحَنَّ بعد تَبَسُّقٍ أَي ثَقُل ومال بعد علُوِّه.
(٥) الهوامل والشوامل، أبوحيان التوحيدي ومسكويه، ص١١٩.

لقد عني الإسلام كل العناية بالناحية الخلقية، فعني بتهذيب النفوس، ونشر المثل العليا في الأخلاق، والقرآن هو أساس الإسلام وينبوعه الأول، فهو كتاب دين وتشريع، وكتاب أخلاق في الوقت نفسه، فقد تحدث عن مكارم الأخلاق، ومحامد الخصال حديثه الموجز، فصار رائداً لكل مؤمن راغب في التزين بالفضائل، والتحلي بحسن الطباع[1]، والقرآن الكريم جاء لتقويم الخلق وتهذيبه، ونشر القيم الأخلاقية الرفيعة في المجتمع العربي خاصة، والمجتمع الإنساني بصورة عامة.

إن الأخلاق مجموعة من السلوكيات والعادات التي يتصف بها الإنسان، والسلوك هو أعمال الإنسان الإرادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة، وهي لا تسمى سلوكاً إلا إذا كانت صادرة على إرادة، أما إذا صدرت عن المرء من غير إرادة فتسمى حينئذ تصرفاً تدفع إليه الغرائز التي يشترك فيها الإنسان والحيوان على السواء[2].

إن لفظة الأخلاق لفظة عامة، تفهم دلالتها بوصفها وتخصيصها، أما فهم الأخلاق على أنها تمثل الخصال المحمودة أو أنماط السلوك الإيجابية في التصرف فمجافٍ للصواب.

إن هناك علاقة وثيقة بين المعنى اللغوي للأخلاق ومعناها الاصطلاحي، فمن معانيها اللغوية كما مر: السجية والطبع والعادة، وهذه كلها تكون بمعنى الميل والفتور، والميل قد يكون نحو الخير، وقد يكون نحو الشر، وتبعاً لذلك يصنف الخير بأنه مجموعة الفضائل التي يسعى الإنسان الخيّر لاقتنائها؛ إرضاءً لربه أو لذاته أو لمجتمعه، والشرُّ مجموعة من الرذائل التي يجاهد الإنسان لتوقّيها، أو التخلي عنها[3].

(١) معجم ألفاظ القيم الأخلاقية، د. نوال كريم، ص١٦.
(٢) العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، محمد بيصار، ص٢١٥.
(٣) معجم ألفاظ القيم الأخلاقية، ص١٨.

أولاً: العقل في شعر أبي تمام:

العَقْلُ: التَّثَبُّت في الأُمور. والعَقْلُ: القَلْبُ، والقَلْبُ العَقْلُ، وسُمِّي العَقْلُ عَقْلاً لأَنه يَعْقِل صاحبَه عن التَّوَرُّط في المَهالِك، أَي يَحْبِسه[١].

إن العقل قيمة ثمينة، فهو مروءة الإنسان ومصدر قوته، وما يميزه عن باقي المخلوقات، وهو شرفه وفخره، وهاديه ودليله إذا ادلهمت الأمور، وتكالبت الخطوب، ومن مأثور كلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قوله: مروءة الرجل عقله، وشرفه ماله[٢]، ويروى عن الأحنف بن قيس قوله: العقلُ خيرُ قرينٍ، والأدبُ خير ميراث، والتوفيق خير قائد[٣]، وحدث العتبي عن أبيه أن العقل عقلان: عقل تفرد الله بصنعه، وعقل يستفيده المرء بأدبه وتجربته، ولا سبيل إلى العقل المستفاد إلا بصحة العقل المركب، فإذا اجتمعا في الجسد قوَّى كل واحد منهما صاحبه تقوية النار في الظلمة نورَ البصر[٤].

فكل شيء عالة على العقل يستمد منه ويستفيد، أما العقل فمدَدُه التجارب وطول الممارسة.

لقد كرم الله الإنسان على سائر الحيوان بالعقل، وكرم بعض بني آدم على بعض بصحة العقل ورجاحته، وكلما كان للعقل حضور في حياة المرء كان أنضج رأياً، وأهدى طريقاً، وأسما خلقاً، وأجمل لفظاً، وأرق عبارةً، وأحسن هدياً، وأنبه شأناً.

ومن حرم العقل فقد حرم خيراً كثيراً، وصار أشبه شيء بالسوائم والعجموات التي لا تميز الخطأ من الصواب.

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (عقل) قال:" العَقْلُ: الحِجْر والنُّهى، ضِدُّ الحُمْق، والجمع عُقولٌ..
(٢) كتاب الأمالي، أبو علي القالي، ص٤١٨.
(٣) المرجع السابق، ص٤١٨.
(٤) المرجع السابق، ص٤١٨.

وإن من أوضح الدلالات على جلالة هذه القيمة تعدد مسمياتها، فيقال: فلان عاقلٌ، أريبٌ، لبيبٌ، كيِّسٌ، حصيفٌ، رصينٌ، فطنٌ، داهيةٌ، باقعةٌ، غزير العقل، من ذوي العقول الوافرة، والأحلام الراجحة، والأفهام النيرة، والأذهان الصافية، والقلوب الواعية، ويقال في ضد ذلك تعييباً وتنقيصاً: أحمقٌ، محمَّقٌ، أخرقٌ، أنوكٌ، رقيعٌ، أرعنٌ، أهوجٌ، لا مسكة له، ولا حصاة له.

وقد كان أبوتمام يشيد بالعقل ويجله، وبه يفخر ويمدح، وشعره مليء بالحكمة التي هي تصوير دقيق للواقع، ومظهر من مظاهر عبقرية العقل وقوة النفس، وبراعتها في قراءة ما يعتمل في النفس الإنسانية، ولذا كانت الحكمة أجل ثمار العقل وأزكاها.

إن من يقرأ شعر أبي تمام يلحظ عنايته الفائقة في سبك الشعر وإحكام العبارة وتفتيق المعاني، وجل شعره مثال على ذلك، وقد اشتهر خبر الحادثة التي تشير إلى قدرته العقلية وذهنه المتوقد؛ حين مدح الخليفة العباسي أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية، فلما انتهى فيها إلى قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس[1]

قال له الوزير: أتشبه أمير المؤمنين بأجلاف العرب؟

فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه وأنشد:

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراس[2]

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٢/ ٢٤٩.

(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٢/ ٢٥٠.

ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين، فعجبوا من سرعته وفطنته[١].

ومن نماذج مدحه لعقل الممدوح قصيدته التي يمدح به حبيش بن المعافى قاضي نصيبين، ورأس عين، حيث وصفه برجاحة الحلم وتفوقه على أقرانه، قال:

هُمامٌ وَرِيٌّ الزَندِ مُستَحصِدُ القُوى ... إِذا ما الأُمورُ المُشكِلاتُ أَظَلَّتِ
إِذا ظُلُماتُ الرَأيِ أُسدِلَ ثَوبُها ... تَطَلَّعَ فيها فَجرُهُ فَتَجَلَّتِ
إِذا ما حُلومُ الناسِ حِلمَكَ وازَنَت ... رَجَحتَ بِأَحلامِ الرِجالِ وَخَفَّتِ[٢]

يقال: وري الزند إذا خرجت ناره، فرأي الممدوح يستضاء به كما يستضاء بالنار؛ حتى إذا كثرت المشكلات، وتعقدت الأمور، واشتد الظلام أشرق نور عقله على تلك الظلمة فانجلت؛ فلديه عقل صحيح ورأي رجيح.

وقال يمدح عمر بن عبد العزيز الطائي من أهل حمص:

نِعمَ الفَتى عُمَرٌ في كُلِّ نائِبَةٍ ... نابَت وَقَلَّت لَهُ "نِعمَ الفَتى عُمَرُ"
مُجَرِّدٌ سَيفَ رَأيٍ مِن عَزيمَتِهِ ... لِلدَهرِ صَيقَلُهُ الإِطراقُ وَالفِكَرُ
عَضباً إِذا سَلَّهُ في وَجهِ نائِبَةٍ ... جاءَت إِلَيهِ بِناتُ الدَهرِ تَعتَذِرُ[٣]

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ٢/ ١٥، ويعزز ذلك خبر ابن الزيات في الوفيات ص١٦ حيث قال له: يا أبا تمام، إنك لتحلي شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسناً على بهي الجواهر في أجياد الكواعب، وما يدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازاة. وكان بحضرته فيلسوف، فقال له: إن هذا الفتى يموت شاباً، فقيل له: ومن أين حكمت عليه بذلك؟ فقال: رأيت فيه من الحدة والذكاء والفطنة مع لطافة الحس وجودة الخاطر ما علمت به أن النفس الروحانية تأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده، وكذا كان، لأنه مات وقد نيف على ثلاثين سنة.

(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ١/ ٣٠٥-٣٠٨.

(٣) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٢/ ١٨٨.

فهذا الممدوح له فضائل كثرة تستحق جميعها الثناء والإشادة غير أن أعلاها وأميزها أنه صاحب رأي رشيد صقله كثرة الإطراق والتفكر؛ حتى جاء عضباً قاطعاً، فإذا ما حلت نائبة أو جاءت مصيبة نزلت نازلة أشرعه في وجهها ودفعها عن نفسه وقومه بما يملكه من موهبة عقلية، ورأي صقيل، ما جعل بنات الدهر تأتي إليه معتذرة عما جنته واقترفته.

ومن قصيدة أخرى له يعاتب فيها أبا القاسم ابن الحسن بن سهل، يقول منها:

وَما أَنا بِالغَيرانِ مِن دونِ جارِهِ ... إِذا أَنا لَم أُصبِح غَيوراً عَلى العِلمِ
لَصيقُ فُؤادي مُذ ثَلاثونَ حِجَّةً ... وَصَيقَلُ ذِهني وَالمُرَوِّحُ عَن هَمّي
وَإِنّي إِذا ما الحِلمُ أَحوَجَ لاحِياً ... إِلى سَفَهٍ أَفضَلتُ فَضلاً عَلى حِلمي[1]

يشير هنا إلى غيرته على العلم، وما يعنى بالعلم ويعرف قدره إلا من رجح عقله وزاد فضله، فالعلم الذي اكتسبه وبذل وقته في تحصيله أدركه في وقت مبكر من عمره، فهو لصيق فؤاده منذ ثلاثين سنة - علماً أنه مات وعمره قرابة ٤١ سنة – وهذا العلم الذي هو صيقل عقله، وأنيس نفسه، وضابط لسلوكه وتصرفاته، فما يدع لسفيه ملاح عليه يداً، بل يعرض عن ملاحاة السفهاء ومحامقة الجهلاء، ونعم العلم والعقل مكتنزاً ومدخراً، وحصناً ضد العوادي.

وقال من قصيدة يعاتب فيها محمد بن سعيد كاتب الحسن بن سهل ويطالبه فيها بأن يرعيه سمعه، ويصغي إليه، فليس به صمم عن الأكرومة التي تساق إليه، وسيجد أنها أطيب من الماء البارد على الظمأ إذا قدمت إليه من صاحب فهم وإدراك، أجاد سبكها وأحسن حبكها؛ حتى يكاد الميت يفهم أبياتها لحسنها وجودة صياغتها، بل إن الورق الذي سطرت عليه والقلم الذي سطرت به يحسده على سمو معناه وجودة مبناه، فأنا بتجويدي لشعري

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٤/ ٤٩٥-٤٩٦.

كزهير، وأنت بتقديرك له كهرم بن سنان؛ ذلك أنها تأخذ بفكر السامع وتملك عليه عقله حتى كأنه عاشق مستهام، أو مدنف قد ألم به شيء، يقول:

مُحَمَّدَ بنَ سَعيدٍ أَرعِني أُذُناً ... فَما بِأُذنِكَ عَن أُكرومَةٍ صَمَمُ
لَم تُسقَ بَعدَ الهَوى ماءً عَلى ظَمَإٍ ... كَماءِ قافِيَةٍ يَسقيكَها فَهِمُ
مِن كُلِّ بَيتٍ يَكادُ المَيتُ يَفهَمُهُ ... حُسناً وَيَحسُدُهُ القِرطاسُ وَالقَلَمُ
مالي وَمالَكَ شِبهٌ حينَ أُنشِدُهُ ... إِلّا زُهَيرٌ وَقَد أَصغى لَهُ هَرِمُ
بِكُلِّ سالِكَةٍ لِلفِكرِ مالِكَةٍ ... كَأَنَّهُ مُستَهامٌ أَو بِهِ لَمَمُ[1]

وحين مدح محمد بن حسان ختم القصيدة ببيتين يبين فيهما أهمية العقل لدى ذويه، وأن الممدوح حين يكون عقله حاضراً فيما يفعل ويدع فإنه سيفهم الأمور على ما هي عليه وسيعطيها قدرها الذي تستحقه، وسيدفع الأيام عن مادحه بعطاء جزل يستحقه؛ لأنه بعقله يفهم المعاني التي يوردها الشاعر والتي ربما قصر في إدراكها كثير من السامعين؛ ما يجعل نفسه تبتهج بما تسمع وضميره يتبسم لما يقال، يقول:

لَم يَذعَرِ الأَيّامَ عَنكَ كَمُرتَدٍ ... بِالعَقلِ يَفهَمُ عَن أَخيهِ وَيُفهِمُ
مِمَّن إِذا ما الشِعرُ صافَحَ سَمعَهُ ... يَوماً رَأَيتَ ضَميرَهُ يَتَبَسَّمُ[2]

وينطق لسانه في معرض مدحه للحسن بن وهب بأن الأدب تعلو قيمته ويسمو شأنه متى حصِّن باللب، واللب هو العقل، ويؤكد أن العقل هو الحرز الحصين والمعقل المكين، وهو سراج صاحبه في الملمات الذي يستضيء به في الظلمات، ويهتدي به في المجاهل المعتمة التي لا رسوم لها، ولا منارات يهتدى بها، يقول:

(١) المرجع السابق، ٤/ ٤٩٠.
(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٣/ ٢١٧.

بِحَديقَةِ الأَدَبِ الَّتي قَـد حُصِّـنَت بِاللُـبِّ إِنَّ العَقـلَ أَحـرَزُ مَعقِـلِ
بِسـراجِ كُـلِّ مُلِمَّـةٍ في لَونِهـا كَلَـفٌ وَمَعلَـمِ كُـلِّ أَرضٍ مَجهَـلِ(١)

وقلما خلت قصيدة لأبي تمام من أبيات يشيد فيها بأهمية العقل ودوره في حياة المؤثرين في الحياة، ومن ذلك قوله من قصيدة يمدح بها قاضي القضاة في زمنه، يقول:

مِن أَحاديـثَ حـينَ دَوَّختَهـا بِـالرَأيِ كانَـت ضَـعيفَةَ الإِسـنادِ
فَنَفى عَنكَ زُخـرُفَ القَـولِ سَـمعٌ لَم يَكُـن فُرصَـةً لِغَـيرِ السَـدادِ
ضَرَبَ الحِلـمُ وَالوَقـارُ عَلَيـهِ دونَ عـورِ الكَـلامِ بِالأَسـدادِ(٢)

وفي مقام الذم حين هجا موسى بن إبراهيم الرافقي، عابه بضعف رأيه ونفى عنه صحة العقل، ووصمه بثقل الفهم والإدراك، يقول منها:

أَيُّ رَأيٍ وَأَيُّ عَقـلٍ صَـحيحِ لَم يُخَوِّفـكَ سـانِحي وَبَريحـي
سـارَ في التيـهِ عَقـلُ مَـن ظَـنَّ أَنّي بِالأَمـاني يَسـيرُ فيـكَ مَـديحي
فَـلا حَسَـبٌ صَـحيحٌ أَنـتَ فيـهِ فَتُكثِـرَهُم وَلا عَقـلٌ صَـحيحُ(٣)

ويقول من قصيدة أخرى مادحاً سليمان بن وهب، ويشفع في رجل يقال له سليمان بن رزين ابن أخي دعبل الخزاعي:

مِسَـنُّ فِكـرٍ إِذا كَلَّـت مَضـارِبُهُ يَومـاً وَصَـيقَلُ أَلبـابٍ وَأَذهـانِ(٤)

وقال مخاطباً صالح بن عبدالله بن صالح القرشي، وعائباً عليه جهله، مستشهداً

(١) المرجع السابق، ٣/ ٤٥.
(٢) المرجع السابق، ١/ ٣٦٢-٣٦٣.
(٣) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٤/ ٣٣٣-٣٣٤.
(٤) المرجع السابق، ٣/ ٣٣٤.

بالمثل العربي الشهير من لك بأخيك كله، مبيناً أن المغبون هو من غبن في عقله، ولم يشعر بذلك، يقول:

وَعاذِلٍ عَذَلتُهُ في عَذلِهِ ... فَظَنَّ أَنّي جاهِلٌ مِن جَهلِهِ
ما غَبَنَ المَغبونَ مِثلُ عَقلِهِ ... مَن لَكَ يَوماً بِأَخيكَ كُلِّهِ
لَبِستُ رَيعاني فَدَعني أُبلِهِ ... رَأيَ اِبنِ دَهرٍ غَرَقاً في خَبلِهِ[1]

ثانياً: الشجاعة في شعر أبي تمام

شَجُعَ، بالضم، شَجاعةً: اشْتَدَّ عِنْدَ البَأْسِ، والشَّجاعةُ: شِدّةُ القَلْبِ في البأْس[2]، قال أبوحيان التوحيدي: فأما الشجاعة فهي استعمال قوة العصب بقدر ما ينبغي، وفي الوقت الذي ينبغي، وفيما ينبغي، وعلى الحال التي تنبغي، وهي خُلقٌ يصدر عنه هذا الفعل على ما يحده العقل، وهي حال واسطة بين طرفين مذمومين: أحدهما زيادة بالإفراط، والأخرى زيادة بالتفريط، فأما من جانب الزيادة، فأن تستعمل بأكثر مما ينبغي في سائر شرائطها فتسمى تهوراً، وأما من جانب النقصان، فأن تستعمل بأقل مما ينبغي في سائر شرائطها، فتسمى جُبناً، والشجاعة لفظة مدح، كالجود والعفة، وما جرى مجراهما، وأول ما يظهر منها أثرها في الإنسان نفسه إذا قمعت شهواته، فاستعمل منها قدر ما يحده العقل بسائر شرائطها، ثم يظهر أثرها في غيره إذا قصده آخر بضيم أو ظلم، فإنه يدفعه عن نفسه بالشروط المذكورة، من غير إفراط ولا تفريط[3].

قال أبو حيان: وأما الشجاعة والجبن فهما خلقان متصلان بالخلق، ولهذا يعز على الشجاع أن يتحول جباناً، ويتعذر على الجبان أن يصير شجاعاً، وكذلك طرفاهما داخلان في

(١) المرجع السابق، ٣/ ٣٣٤.
(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة "شجع".
(٣) الهوامل والشوامل، أبو حيان ومسكويه، ص٩٧-٩٨.

الخلق أعني التهور والتوقي[١]، وسئل فيلسوف عن الشجاعة فقال: جِبلَّةُ نفس أبية[٢].

إن الشجاعة عند العرب عظيم شأنها، وجسيم أمرها؛ ولذا أجمعوا على سنائها، فأشادوا بهذه القيمة الجليلة، وسودوا من اتصف بها، وقدموه، وأكبروا الشجاع، ومدحوه، ولو كان عدواً لهم.

ومن جلال خلق البطولة والشجاعة عند العرب أن كثرت صفات الأبطال، ومسميات الفرسان ثناءً وإكباراً، فكان من ذلك قولهم: فلان شجاعٌ، بطلٌ، باسلٌ، مقدامٌ، مغوارٌ، جريءٌ، أبيٌّ، أسدٌ، رابط الجأش، صادق البأس، مسعر حرب، خواض غمرات، مانع الحريم، حامي الحقيقة، أبيُّ الذلِ، لا يقيم على مذلة، ولا يصبر على خسف، وتقول فيمن كان خلاف ذلك: جبانٌ، هيَّابٌ، رعدِيدٌ، خوَّارٌ، يقيم على الذل، ويرضى الخسف، ويقرّ على الضيم، مخلوع الفؤاد، واهي الجأش، هش المكسر..

قال أبو حيان: لو تميّزت الأشياء لكان الكذب مع الجُبن، والصِّدق مع الشَّجاعة، والراحة مع اليأس، والتّعب مع الطمع، والحرمان مع الحرص، والذُّلّ مع الدَّيْن[٣].

إن الشجاعة غريزة عزيزة، وخلق نفيس، وجُنَّة للرجل من المكاره، وعون له على الشدائد، ومن مأثور قول العرب: الشجاعة وقاية، والجبن مقتلة[٤]، وقولهم: الشجاعة صبر ساعة[٥]، ولو لم يكن في الشجاعة إلا أن الشجاع يرد صيته واسمه عنه أذى الخلق، ويمنعهم من الإقدام عليه، لكفى بها شرفاً وفضلاً[٦].

(١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ١/ ١٥١.
(٢) محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني، ٣/ ٢٥٣.
(٣) أخلاق الوزيرين، أبوحيان التوحيدي، ص٣٩٠.
(٤) الفروسية، ابن قيم الجوزية، ص٤٩١.
(٥) محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني، ٣/ ٢٥٣.
(٦) الفروسية، ابن قيم الجوزية، ص٤٩٦.

لقد كانت صفة الشجاعة مما يتغنى بها الشعراء، ويمتدحون بها ممدوحيهم، ويوظفونها في مقاماته الشعرية، يقول أبوتمام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي:

رَمـــى اللهُ مِنـــهُ بابَكـــاً وَوُلاتَـــهُ ... بِقاصِـمَةِ الأَصـلابِ في كُـلِّ مَشـهَدِ
بِأَسـمَحَ مِـن غُـرِّ الغَـمامِ سَـماحَةً ... وَأَشجَعَ مِـن صَرفِ الزَمـانِ وَأَنجَـدِ
فَتـىً يَـومَ بَـذِّ الخُرَّمِيَّـةِ لَم يَكُـن ... بِهَيّابَـــةٍ نِكـــسٍ وَلا بِمُعَـــرِّدِ
رَآكَ سَديدَ الرَأيِ وَالرُمحِ في الوَغى ... تَـأَزَّرُ بِالإِقـدامِ فيـهِ وَتَرتَـدي
وَلَـيسَ يُجَـلّي الكَـربَ رَأيٌ مُسَـدَّدٌ ... إِذا هُـوَ لَم يُـؤنَس بِـرُمحٍ مُسَـدَّدِ
فَمَـرَّ مُطيعـاً لِلعَـوالي مُعَـوَّداً ... مِـنَ الخَـوفِ وَالإِحجـامِ مـا لَم يُعَـوَّدِ
وَكـانَ هُـوَ الجَلـدَ القُـوى فَسَـلَبتَهُ ... بِحُسـنِ الجِـلادِ المَحـضِ حُسـنَ

في هذا النص الشعري المحكم نرى كيف وظف أبوتمام قيمة الشجاعة في وصف ممدوحه، فهو شجاع في منازلة الأعداء، وقوي أمام ضعف النفس وبخلها، شجاع القلب والوجه؛ لذا يجود بالمال والنفس، فهو الفتى الفتي، الذي ليس بهيابة ولا "بمعرد"، وهو الفارُّ الذي يمعن في الهرب ويبعد، وإن مما يخيف الخصوم ويرهبهم هو اجتماع سداد الرأي إلى سداد الرمي في رجل قوي القلب متسربل سربال الشجاعة في الوغى، وهل تكشف الكروب وتجلى الخطوب وتدرك المطالب إلا بمثل هذه الصفات العزيزة؟

وقال يمدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني:

مـا إِن تَـرى الأَحسـابَ بيضـاً ... إِلّا بِحَيـثُ تَـرى المَنايـا سـودا
لَـبِسَ الشَـجاعَةَ إِنَّهـا كانَـت لَـهُ ... قِـدماً نَشـوغاً في الصِـبا وَلَـدودا

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٢/ ٢٤-٢٧.

بَأساً قَبيلِيّاً وَبَأسَ تَكَرُّمٍ جَمٍّ وَبَأسَ قَريحَةِ مَولودا
وَإِذا رَأَيتَ أَبا يَزيدٍ في نَدىً وَوَغىً وَمُبدِئَ غارَةٍ وَمُعيدا
يَقري مُرَجّيهِ مُشاشَةَ مالِهِ وَشَبا الأَسِنَّةِ ثُغرَةً وَوَريدا
أَيقَنتَ أَنَّ مِنَ السَماحِ شَجاعَةً تُدمي وَأَنَّ مِنَ الشَجاعَةِ جودا(١)

إن معترك المنايا ومواقف الموت لها هول يخلع القلوب، ولا يقدم عليها إلا الفحول من الرجال، فهي تبين معادنهم، وتشهر ذكرهم، وتكشف عن أصالتهم، وكرم محتدهم، وقوله: "لبس الشجاعة" وفي رواية "ألف الشجاعة" فكأنه دواء تجرعه جرعة جرعة؛ حتى تعافى من داء الجبن والهلع، فأصبحت الشجاعة إلفاً له وخلقاً يتزيا به، فاجتمع فيه البأس من وجوه، فمنه ما ورثه عن ذويه وقبيلته؛ لأنهم شجعان، ومنه ما يتكلفه؛ ليزداد به كرماً، ومنه ما هو طبع منه وقريحة، ولد معه، ونشأ فيه، وأصل القريحة: أول ما يخرج من البئر إذا حفرت، وقريحة كل شيء: أوله، و"المشاشة" العظم الذي يمكن مضغه، وربما أكل، فكأنه يمكن معتفيه من ماله؛ حتى يكاد يأتي على أصله، فهو يعطي آمليه خيار ماله، ويعطي أعداءه شبا أسنته ويمكنها من ثغور نحورهم.

إن المتأمل في حال الممدوح يقرأ التناسب بين السماحة والشجاعة؛ إذ كان لا تسخو نفسه إلا بشجاعته، ولا يشجع إلا بعد أن يسخو بنفسه.

وقال يمدح مهدي بن أصرم:

كَأَنَّ بِهِ غَداةَ الرَوعِ وِرداً وَقَد وُصِفَت لَهُ نَفسُ الشُجاعِ
لَحُسنُ المَوتِ في كَرَمٍ وَتَقوى أَحَبُّ إِلَيهِ مِن حُسنِ الدِفاعِ

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ١/ ٤١٧-٤١٨.

وَرَأيُـكَ مِثـلُ رَأيِ السَـيفِ صَـحَّت مَشــورَةُ حَــدِّهِ عِنــدَ المِصــاعِ
فَلَــو صَــوَّرتَ نَفسَــكَ لَم تَزِدهــا عَـلى مـا فيـكَ مِـن كَـرَمِ الطِبـاعِ(١)

هنا يصف ما يتلبس ممدوحه من الشجاعة إذا كان يوم الروع الذي تنخلع له القلوب الضعيفة، وما يبدو عليه من تشوق وتشوف للقاء الشجعان؛ فهو كمن يسوقه العطش إلى ورود يروي به غليله، ثم يؤكد أن الموت على حال من التقوى والذكر الحسن ومناجزة الأعداء أحب من موقف الذل والمهانة، ولئن كان حاد السيف عند اللقاء فإن رأيه حديد كسيفه، وخاصة حين تطيش عقول الرجال وتذهل أفئدة الأبطال، فالله قد بلغ به أقصى المنازل: من كرم الطبع والطبيعة، ولو كان أمر تصوير ما جبله الله عليه إلى نفسه لما زاد في ذلك شيئاً.

وقال يمدح أبا سعيد ويـذكر مواقفـه البطوليـة وشـجاعته النـادرة في فـتح الأمصـار والانتصار على الكفار، وحماية ثغور المسلمين، يقول:

لَــولا جِــلادُ أَبي سَــعيدٍ لَم يَــزَل لِلثَغــرِ صَــدرٌ مــا عَلَيــهِ صِــدارُ
إِلّا تَفِــرَّ فَقَــد أَقَمــتَ وَقَــد رَأَت عَينــاكَ قِــدرَ الحَــربِ كَيــفَ تُفــارُ
في حَيــثُ تَســتَمِعُ الهَريــرَ إِذا عَــلا وَتَــرى عَجــاجَ المَــوتِ حــينَ يُثــارُ
فَــأُنظُر بِعَــينِ شَــجاعَةٍ فَلَــتَعلَمَن أَنَّ المُقــامَ بِحَيــثُ كُنــتَ فِــرارُ
سَــمَقَت بِــهِ أَعراقُــهُ في مَعشَــرٍ قُطــبُ الــوَغى نُصُــبٌ لَهُــم وَدَوارُ
لا يَأسَــفونَ إِذا هُــمُ سَــمِنَت لَهُــم أَحســابُهُم أَن تُهــزَلَ الأَعــمارُ(٢)

الصِّدار: ما يغطى به الصدر من لين الملابس، وتستخدمه النساء الولّد، فـالثغر، وهـو واحـد

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٢/ ٣٣٩-٣٤٠.
(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٢/ ١٦٨-١٧٦.

الثغور، محصن بك، فأنت تقاتل الأعداء بسيفك وتجالدهم محاماةً عنه، ولولا جلادك وصبرك وشجاعتك لما كان حمى، ثم يخاطب عدوه الذي لم يختر الفرار بأن مقامه شر له، وأشد عليه من الهرب، لو هرب؛ لأنه سيشهد مصارع رجاله بعينيه، ويسمع صراخهم بأذنيه، ويرى عجاج الموت الذي يعلوهم غباره، فأبو سعيد سمقت به أعراقه؛ حتى أصبح قطب الرحى الذي يدار لديه الرأي، فهو من قوم لا يأنفون على أعمارهم أن تكون قصاراً أمام الحفاظ على سمعتهم وحسبهم.

ولما هُزم بابك الخرمي قال يمدح المعتصم، ويذكر فتح الخرمية، ويصور المعركة تصويراً بديعاً في قصيدة طويلة، يقول منها:

يا يَومَ أَرشَقَ كُنتَ رَشقَ مَنِيَّةٍ ... لِلخُرَّمِيَّةِ صائِبِ الآجالِ
قَد شَمَّروا عَن سوقِهِم في ساعَةٍ ... أَمَرَت إِزارَ الحَربِ بِالإِسبالِ
وَكَذاكَ ما تَنجَرُّ أَذيالُ الوَغى ... إِلّا غَداةَ تَشَمُّرِ الأَذيالِ
لَمّا رَآهُم بابَكٌ دونَ المُنى ... هَجَرَ الغَوايَةَ بَعدَ طولِ وِصالِ
تَخِذَ الفِرارَ أَخاً وَأَيقَنَ أَنَّهُ ... صِرِّيُّ عَزمٍ مِن أَبي سَمّالِ
قَد كانَ حُزنُ الخَطبِ في أَحزانِهِ ... فَدَعاهُ داعي الحَينِ لِلإِسهالِ
لَبِسَت لَهُ خُدَعُ الحُروبِ زَخارِفاً ... فَرَّقنَ بَينَ الهَضبِ وَالأَوعالِ
وَوَرَدنَ موقاناً عَلَيهِ شَوازِباً ... شُعثاً بِشُعثٍ كَالقَطا الأَرسالِ
يَحمِلنَ كُلَّ مُدَجَّجٍ سُمرُ القَنا ... بِإِهابِهِ أَولى مِنَ السِربالِ
خَلَطَ الشَجاعَةَ بِالحَياءِ فَأَصبَحا ... كَالحُسنِ شيبَ لِمُغرَمٍ بِدَلالِ
هَيهاتَ رُوِّعَ روعُهُ بِفَوارِسٍ ... في الحَربِ لا كُشُفٍ وَلا أَميالِ

إِنَّ الرِمـــاحَ إِذا غُرِســـنَ بِمَشـــهَدٍ فَجَنـــى العَـــوالي في ذَراهُ مَعـــالِ[١]

أرشق جبل بنواحي موقان، يقول المرزوقي: المعنى: اشتدوا وتخففوا مشمرين في وقت يوجب للحرب أن تجر أذيالها خيلاءً وكبراً؛ لأن الحرب تختال إذا اجتهد أبناؤها وأبلوا فيها[٢]، وإنما تحوج الحرب إلى تشمير الأذيال في الوقت الذي تشتد فيه، وتعم أهلها بالخوف.

وحين رآهم بابك دون ما كانت نفسه تؤمل علم أنه في باطل، وقوله: "صِريّ عزم من أبي سمَّال" مثل يضرب للرجل يصدق عزمه على الشيء، فلا ينثني عنه حتى يناله، قال ابن الأعرابي: كان أبو سمال الأسدي متهماً في دينه، فضلت ناقته، فحلف لا يصلي أو يردها الله، فأصابها وقد علق زمامها بشجرة، فقال: علم الله أنها صرِّي، يقول: أصررت على يميني فردها، فضرب به المثل[٣].

لقد كان بابك صعب المنال حين كان متحصناً هو وأتباعه في الجبل، فلما ظلم وبغى أنزله حينه إلى السهل ليلقى جزاءه، هو ومن بغى معه، والأوعال توصف بلزوم الجبال، وموقان مدينة من خراسان من أعمال طوس، وهي من غر البلاد المذكورة.

ثالثاً: العدل في شعر أبي تمام

العَدْل: ما قام في النفوس أَنه مُسْتقيم، وهو ضِدُّ الجَوْر وفي أَسماء الله سبحانه: العَدْل، هو الذي لا يَمِيلُ به الهوى، فيَجور في الحكم، وهو في الأَصل مصدرٌ سُمِّي به فوُضِعَ مَوْضِعَ العادِلِ، وهو أَبلغ منه؛ لأَنه جُعِلَ المسَمَّى نفسُه عَدْلاً، وفلانٌ من أَهل المعْدِلة، أَي من أَهل العَدْلِ، والعَدْلُ: الحُكْم بالحق، يقال: هو يَقْضي بالحق ويَعْدِلُ، وهو حَكَمٌ

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٣/ ١٣٥-١٤٣.
(٢) المرجع السابق، ٣/ ١٣٥-١٣٦.
(٣) معجم الأمثال العربية، شمسي باشا، ٢/ ١٤٣٤.

عادِلٌ: ذو مَعْدَلة في حكمه، والعَدْلُ من الناس: المَرْضِيُّ قولُه وحُكْمُه[١].

وأما العدل والجور فقد يكونان خلقين بالفطرة، ويكونان فعلين بالفكرة، وجانباهما بالفعل ألصق، وإلى الاكتساب أقرب[٢].

إن العدل قيمة سامية، اتفق أهل الأرض على سمو هذه القيمة وتقديمها، فبها قامت السموات والأرض، وأمن الناس الجور والبغي والظلم، وقد تعددت أسماء هذه القيمة بألفاظ كريمة، فيقال: حكم بالعدل، وبالقسط، والسَّوية، والنَّصفة، والإنصاف، ويقال فيمن كان ضد ذلك: سار بالجور، والظلم، والغشم، والحيف، والجنف، والعسف. وإن الله تبارك وتعالى لم يخلق مذاقاً أحلى من العدل، ولا أروح على القلوب من الإنصاف، ولا أمرَّ من الظلم، ولا أبشع من الجور[٣].

إن العدل سور لا يغرقه ماء، ولا تحرقه نار، ولا يهدمه منجنيق، وقيل: عدلٌ قائمٌ خيرٌ من عطاءٍ دائمٍ، وقيل: لا يكون العمران حيث لا يعدل سلطان، وقيل لحكيم: ما قيمة العدل؟ قال: ملك الأبد، وقيل: ما قيمة الجور؟ قال: ذل الحياة، وقيل: العدل يسع الخلق، والجور يقصر عن واحد[٤]، ومن مأثور الحكمة: العدل حصن وثيق في رأس نيق، لا يحطمه سيل، ولا يهدمه منجنيق. ولبعض السلف: العدل ميزان الله، والجور مكيال الشيطان، وقال أردشير: إذا رغب الملك عن العدل، رغبت الرعية عن الطاعة، ومن قوله: لا سلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل وحسن سياسة[٥].

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة "عدل".
(٢) الإمتاع والمؤانسة، أبوحيان التوحيدي، ١/ ١٥١.
(٣) رسائل الجاحظ، الجاحظ، ١/ ١٦١.
(٤) محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني، ١/ ٤٤٢-٤٤٣.
(٥) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الزمخشري ٣/ ٧٤.

ولقد كان شأن أبي تمام مع هذه القيمة السامية جليلاً؛ حيث كانت من الخصال التي يمدح بها، ويثني عليها، ومن ذلك قوله مادحاً حبيش بن المعافى قاضي نصيبين ورأس عين:

إِلى خَيرِ مَن ساسَ الرَعِيَّةَ عَدلُهُ ... وَوَطَّدَ أَعلامَ الهُدى فَاِستَقَرَّتِ
أَقَرَّ عَمودَ الدينِ في مُستَقَرِّهِ ... وَقَد نَهَلَت مِنهُ اللَيالي وَعَلَّتِ
وَأَحيا سَبيلَ العَدلِ بَعدَ دُثورِهِ ... وَأَنهَجَ سُبلَ الجودِ حينَ تَعَفَّتِ
وَيَجزيكَ بِالحُسنى إِذا كُنتَ مُحسِناً ... وَيَغتَفِرُ العُظمى إِذا النَعلُ زَلَّتِ
إِذا ظُلُماتُ الرَأيِ أُسدِلَ ثَوبُها ... تَطَلَّعَ فيها فَجرُهُ فَتَجَلَّتِ
بِهِ اِنكَشَفَت عَنّا الغَيايَةُ وَاِنفَرَت ... جَلابيبُ جَورٍ عَمَّنا فَاِضمَحَلَّتِ(١)

يخاطب الممدوح مثنياً عليه بما من الله عليه من حسن سياسة الناس، وذلك بأن نشر العدل بين الرعية، ودفع الظلم عنهم، وناصر الهدى وثبت أركانه ورفع أعلامه، وجدد طرائق الجود التي اندثرت أو كادت، وأحيا سبيل العدل بعد أن كان غائباً، مبتدأ بنفسه ثم بغيره، ومن عدله أنه يدفع ظلمة الرأي بإشراق فجره ونور عقله وعدل، وبه اندفع الظلم وارتفع، وزالت جلابيب الجور واضمحلت.

وقال مثنياً على الله جل وعلا، بما يليق به سبحانه وتعالى، وذاكراً لصفة العدل التي هي من الصفات التي يتصف به الرب العظيم:

لَقَد قَدَّرَ الأَرزاقَ مَن لَيسَ عادِلاً ... عَنِ العَدلِ بَينَ الناسِ فيما يُقَدِّرُ(٢)

وقال يمدح الخليفة العباسي المعتصم بالله بالعدل الذي انتظم به البلاد؛ حتى أصبحت كالعقد، وجوهرة العقد فيه هي العدل، فالعدل سراج يزهر، فتضيء به الحياة

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٣١/ ٣٠٣-٣٠٥.
(٢) المرجع السابق، ٤/ ٥٩٤.

ويحيا به الناس كما تحيا الزهور بقطر السماء:

في الأَرضِ مِـــن عَـــدلِ الإِمـــامِ وَمِـــنَ النَبـــاتِ الغَـــضِّ سُرجٌ تَزهَـــرُ
نَظَـمَ الـبِلادَ فَأَصـبَحَت وَكَأَنَّهـا عِقـدٌ كَـأَنَّ العَـدلَ فيـهِ جَـوهَرُ(١)

وقال يمدح محمد بن عبدالملك الزيات أنه يعدل في حكمه ويزيد بذله في العدل، ولم يحمله ما تم في عهد عمر رضي الله عنه من الاستشارة للخلافة بعده وجعله علياً رضي الله عنه ضمن الستة لم يحمله على الاستبداد والظلم، والناس وما لديه من مال هو عدة للنوائب تدفع به الخطوب وتفرج به الكروب، ثم يقول: وقد تنام العين في الظلمة، وقد تستلذه مع أنه مانع لها من التصرف وحاجب يحجب عنها الرؤية ويمنعها مشاهدة الأشياء:

أَرى اِبـنَ أَبي مَـروانَ أَمّـا عَطـاؤُهُ فَطـامٍ وَأَمّـا حُكمُـهُ فَهـوَ عـادِلُ
هُوَ المَرءُ لا الشورى اِستَبَدَّت بِرَأيِـهِ وَلا قَبَضَـت مِـن راحَتَيـهِ العَـواذِلُ
مُعَـرَّسُ حَـقٍّ مالُـهُ وَلَـرُبَّما تَحَيَّفَ مِنهُ الخَطبُ وَالخَطبُ باطِلُ
وَقَد تَألَفُ العَينُ الدُجى وَهوَ قَيدُها وَيُرجى شِفاءُ السَمِّ وَالسَمُّ قاتِلُ(٢)

وقال يمدح الخليفة العباسي المأمون، وأنه يسوس الأمة بالعدل والتواضع، فلا يأخذ الناس بالبطش، ويخاف الوقوع في الآثام حتى تكاد تكون حسناته آثام، فهو محتكم للعدل خاضع له، ومذ نيطت به الخلافة وحكم الله هو الذي يسود الديار، وتشرق به الأرض:

مُستَسـلِمٌ للهِّ سـائِسُ أُمَّـةٍ لِـذَوي تَجَهضُـمِها لَـهُ اِستِسـلامُ
يَتَجَنَّـبُ الآثـامَ ثُـمَّ يَخافُهـا فَكَـأَنَّما حَسَـناتُهُ آثـامُ

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٤/ ١٩٦-١٩٧.
(٢) المرجع السابق، ٣/ ١٢٥-١٢٨.

يـا أَيُّهـا المَلِـكُ الهُـمامُ وَعَدلُـهُ ... مَلِـكٌ عَلَيـهِ في القَضـاءِ هُمـامُ
مـا زالَ حُكـمُ اللهِ يُشـرِقُ وَجهُـهُ ... في الأَرضِ مُذ نيطَت بِـكَ الأَحكـامُ[1]

وقال يمدح الخليفة العباسي المعتصم، مثنياً على قيمة العدل التي يستقر به الملك، وتوطد به عرى الأمن، ويشيد بدفعه الظلم عن أمة كاد أن يغيب في أفق السماء كوكب العدل ويأفل، وقد رعى رعيته بالعدل والرأفة التي لا يتزحزح عنها، ولا تزول عنه؛ فامتلأت قلوب الناس بحبه، وغمرهم برحمته، وانتشر على يده العدل في كل بلدة، وسل سيف الحق حتى كأنه لا غمد له؛ فاستقر قراره وتجذرت أوتاده:

جَلا ظُلُماتِ الظُلـمِ عَـن وَجـهِ أُمَّـةٍ ... أَضـاءَ لَهـا مِـن كَوكَـبِ الحَـقِّ آفِلـهُ
رَعـى اللهُ فيـهِ لِلرَعِيَّـةِ رَأفَـةً ... تُزايِلُـهُ الـدُنيا وَلَيسَـت تُزايِلُـه
فَأَضحَوا وَقَد فاضَت إِلَيـهِ قُلـوبُهُم ... وَرَحمَتُـهُ فـيهِم تَفـيضُ وَنائِلُـه
وَقـامَ فَقـامَ العَـدلُ في كُـلِّ بَلـدَةٍ ... خَطيباً وَأَضحى المُلكُ قَـد شَـقَّ بازِلُـه
وَجَـرَّدَ سَـيفَ الحَـقِّ حَتّـى كَأَنَّـهُ ... مِـنَ السَـلِّ مـودٍ غِمـدُهُ وَحَمائِلُـه[2]

وقال يخاطب إسحاق بن إبراهيم مثنياً عليه وعلى العدل الذي هو من تمام بهاء الدنيا وكمالها، ومذكراً له بهذه الخلة العظيمة التي هي مجد من تمسك بها ولزمها؛ ولذا اضطر للشكوى؛ معللا ذلك بأنه لا عادة له بذلك، ولكن النفس تفيض عند امتلائها:

أَيـا زينَـةَ الـدُنيا وَجـامِعَ شَـملِها ... وَمَـن عَدلُـهُ فيهـا تَمـامُ بَهائِهـا
شَكَوتُ وَما الشَكوى لِنَفسِيَ عـادَةٌ ... وَلَكِن تَفيضُ النَفسُ عِندَ اِمتِلائِهـا[3]

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٣/ ١٥٣.
(٢) المرجع السابق، ٣/ ٢٦-٢٧.
(٣) المرجع السابق، ٤/ ٤٤٢.

وقال يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة، مثنياً عليه بأنه قد عم أهل الجزيرة بنعمة تشرفهم في مقامات التنافس ومشاهد المفاخرة، فالعدل الذي جعلته ظلاً لهم يحتمي به من الظلم مسلمهم ومعاهدهم هو المجد الذي يشرف به من عمل به، وكل من يعترف بالحق يقر بذلك لك، وكل من كان يدفع الحق ولا يقر به، ويجحده فقد أقر لك بذلك أيضاً:

أَفَضتَ عَلى أَهلِ الجَزيرَةِ نِعمَةً ... إِذا شُهِدَت لَم تُخزِهِم في المَشاهِدِ
جَعَلتَ صَميمَ العَدلِ ظِلًّا مَدَدتَهُ ... عَلى مَن بِها مِن مُسلِمٍ أَو مُعاهِدِ
فَقَد أَصبَحوا بِالعُرفِ مِنكَ إِلَيهِمُ ... وَكُلٌّ مُقِرٌّ مِن مُقِرٍّ وَجاحِدِ[1]

رابعاً: العفة في شعر أبي تمام

العِفّة: الكَفُّ عما لا يَحِلّ ويَجْمُلُ، عَفَّ عن المَحارِم والأَطْماع الدَّنِية يَعِفُّ عِفَّةً وعَفّاً وعَفافاً وعَفافة، فهو عَفِيفٌ وعَفٌّ، أَي كَفَّ وتعفَّفَ واسْتَعْفَفَ وأَعفَّه الله[2]، وأما العفة والفجور فخلقان لهما جمرة وهمود، والحاجة تمس إلى العدل في استعمال العفة، ونفي الفجور، وإذا قويت العفةُ حالت عصمة، وإذا غلب الفجورُ صار عدواناً[3]، قال بعض العلماء: "والعفة الإمساك عن المحظور، والنزاهة الوقوف عن المباح، وفي العفة ذب عن الدين، وفي النزاهة حفظ للمروءة"[4]، قال أبو الحسن العامري الفيلسوف: "القوة الشهوانية إذا أفرطت كانت شرهاً، وإذا نقصت كانت جموداً، وإذا توسطت كانت عفة"[5]، قال أبو حيان: "فأما العفيف فالممسك نفسه عن القاذورات، يقال منه: عف فلان يعف عفة وعفافة، وكل هذا

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٢/ ٧٦-٧٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، مادة "عفف".
(٣) الإمتاع والمؤانسة، أبوحيان التوحيدي،١/ ١٥٣.
(٤) البصائر والذخائر، أبوحيان التوحيدي، ٥/ ١٢١.
(٥) المرجع السابق، ٣/ ٩٤.

مسموع، واستعفف أيضاً، قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: ٦] وعفافة اللبن -بضم العين- كالبقية، والعفيف فعيل ينقسم بين فاعل ومفعول، وإذا تماسك وتوقى وأخذ نفسه مأخذ الواجب فهو في طريق الفاعل، ثم قد يكون في معنى المفعول به؛ لأن العفة طباع، فكأنها توجد في فطرته"[١]، فالعفة من أخلاق العرب الرفيعة، وقيمها السامية، التي حضيت منهم بالإجلال والتبجيل، ونال المتخلق بها الإكبار والتقدير، وحاز متمثلها على الثناء الجميل.

وأظهر مظاهر العفة تتمثل في غض البصر عن المحارم، وحفظ النظرات عن النساء، والتعفف عن الشهوات، والتعفف عن الأموال والمغانم والمطاعم[٢]، فالعفة واسطة بين المقارفة والعصمة، والعصمة واسطةٌ بين البشرية والمَلَكية[٣].

وقد كانت العرب تتمدح بالعفة، وتعدها من المروءة، ومن ذلك أنه قيل للأحنف: ما المروءة؟ قال: العِفة والحِرْفة، وقال عمر بن الخطاب: المروءة الظاهرةُ الثياب الطّاهرة[٤]، وقيل لعمرو بن العاص: ما المروءة؟ فقال: العفة عما حرم[٥]، وكان مسلم اليتيم جميلاً فقيل له: ما منعك من مراسلة النساء الحسان مع جمالك ورغبتهنّ في أمثالك، فقال: عفةٌ طباعية، وغيرةٌ إسلامية، وكرمٌ موروث، ومعرفةٌ بقبح العار[٦].

ويعبر العرب عن العفة بألفاظ وكنايات كثيرة، من ذلك: عفيف، وعفيف الإزار، وطاهر الثياب، ونقي العرض، وعفُّ الأديم، ونزه النفس، وغضيض الطرف، وعزوف عن

(١) المرجع السابق، ٥/ ١١٧-١١٨.
(٢) القيم العربية الأصيلة من شعرنا القديم، د. عبدالله مقداد، ص٨٩.
(٣) الإمتاع والمؤانسة، أبوحيان التوحيدي، ٣/ ١٣٠.
(٤) عيون الأخبار، ابن قتيبة، ١/ ٢٩٦.
(٥) محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني، ١/ ٦٢٧.
(٦) البصائر والذخائر، أبوحيان التوحيدي، ٧/ ١٣٥.

الفحشاء، ومصون العرض، وللمرأة عفيفة، وحصان، وبيضة الخدر، وقاصرة الطرف، ويعاب ويعير من كان بخلاف ذلك بألفاظ نافرة، وكلمات قاسية، منها: فاجرٌ، وداعرٌ، وعاهرٌ، ومريبٌ، ودنس الثياب ودرنها.

وقد جاء في أثناء شعر أبي تمام إشادة وذكر بهذه القيمة، فمن ذلك قوله يمدح مالك بن طوق واصفاً إياه بأنه مثل السبيكة في الصفاء والنقاء، فليس يشتغل في أعراض أحد لعفته وإقباله على شأنه، و"الندس" الذي يكشف الأمور عن أخبار الناس، ويستعمل الندس في الصفة بالطعن في الأعراض والبحث عن الأخبار السيئة، وقوله: "عف الإزار" كناية عما تحت الإزار، فهو حافظ لعرضه وعرض جاره، بل إنه يجود برفده ويتجنب الرفث والفسوق:

مِثلُ السَبيكَةِ لَيسَ عَن أَعراضِها ... بِالغَيبِ لا نَدُساً وَلا بَحّاثا
عَفُّ الإِزارِ تَنالُ جارَةُ بَيتِهِ ... أَرفادَهُ وَتُجَنَّبُ الأَرفاثا[1]

وقال يمدح الحسن بن وهب، ويفديه بمن إذا ذكر لم يعرف إلا بما يعيبه من بخل، وما يشوب عرضه من سوء سمعة، من كل رجل صفيق الوجه وقاح لا يستحي، فكأن عينيه قد طمس عليهما فلا حياء فيهما، فهو " متدسم الثوبين" أي دنسهما، وأصل ذلك أن يأكل الطعام الدسم، فيصيب ثوبه، فلا يتعاهده بالغسل، وهذه كناية عن سوء الذكر، وإن كانت ثيابه بيضاء نقية، مع صلابة في الوجه، فكأنه لا ماء فيه:

يَفديهِ قَومٌ أَحضَرَت أَعراضُهُم ... سوءَ المَعايِبِ وَالنَوالُ مُغَيَّبُ
مِن كُلِّ مُهراقِ الحَياءِ كَأَنَّما ... غَطّى غَديرَي وَجنَتَيهِ الطُحلُبُ
مُتَدَسِّمُ الثَوبَينِ يَنظُرُ زادَهُ ... نَظَرٌ يُحَدِّقُهُ وَخَدٌّ صُلَّبُ[2]

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ١/ ٣١٦-٣١٨.
(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٢/ ٢٤٠-٢٤١.

وقال معاتباً ابن أبي سعيد يوسف بن محمد بن يوسف، وفاخراً بصبره على مقاساة مر الأيام وضنك العيش، وهجر الأحبة والصحاب، بعد حسن العشرة في مختلف الفصول، مادام عرضه مصوناً فهذا يكفيه، وهو عزاؤه إذا فقدت لذائذ الحياة ومتعها:

فَلَئِن شَطَّتِ الدِيارُ وَغالَ الـ ـدَهرُ في آلِفٍ وَفي مَألوفِ
وَتَبَدَّلتُ بِالبَشاشَةِ حُزناً بَعدَ لَهوٍ في مَربَعٍ وَمَصيفِ
فَعَزائي بِأَنَّ عِرضي مَصونٌ سائِغُ الوِردِ وَالسَماحُ خَليفي[1]

وقال متمدحا بخلة العفة في المرأة، واصفاً إياها بالحصان، وهي المحصنة من فعل السوء، وقول السوء، ومن هي كذلك فهي منبت حسن يفاخر به ويباهي:

وَكَم عَدَوِيَّةٍ مِن سِرِّ عَمرٍو لَها حَسَبٌ إِذا اِنتَسَبَت حَسيبُ
لَها مِن طَيِّئٍ أُمٌّ حَصانٌ نَجيبَةُ مَعشَرٍ وَأَبٌ نَجيبُ[2]

وقال يمدح محمد بن عبدالملك الزيات:

تَرى كُلَّ نَقصٍ تارِكَ العِرضِ وَالتُقى كَمالاً إِذا المُلكُ اِعتَدى وَهوَ كامِلُ
فَتىً لا يَرى أَنَّ الفَريضَةَ مَقتَلٌ وَلَكِن يَرى أَنَّ العُيوبَ المَقاتِلُ[3]

وقال يمدح مالك بن طوق، ويطلب منه فرساً، ويصفه أنه لا يفعل فعلاً قبيحاً يفتقر إلى أن يستر ببرد أو إزار، ومثل ذلك كثير في شعر العرب، وهو مجانس لقولهم: فلان طاهر الثوب وعفيف الحجزة، ثم إنه "مفترس ماله" فهو يبذله لكل معتف وساغب، لكن عرضه حمى وليس مرتعاً مباحاً:

(١) المرجع السابق، ٤/ ٤٧٧.
(٢) المرجع السابق، ٤/ ٥٥٦.
(٣) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٣/ ١٢١-١٢٦.

لا بُـــردَ أَدنـــى وَلا إِزارَ عَـــلى مُخزِيَـــةٍ تُتَّقَـــى وَلا دَنَـــسِ
مُفـــتَرَسٌ مالُـــهُ وَلَســـتَ تَـــرى فَريسَـــةً عِرضَـــهُ لِمُفـــتَرِسِ[1]

وقال يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي:

لَـهُ خُلُـقٌ سَـهلٌ وَنَفـسٌ طِباعُهـا لَيانٌ وَلَكِن عِرضُـهُ مِـن صَـفاً صَـلدِ[2]

وقال يمدح مالك بن طوق التغلبي بعد أن عزل عن الجزيرة:

لا تَـــأَلَفُ الفَحشـــاءُ بُردَيـــهِ وَلا يَســـري إِلَيـهِ مَـعَ الظَـلامِ المَـأثَمُ
وَسَـــتَذكُرونَ غَـــداً صَـــنائِعَ مالِـــكٍ إِن جَـلَّ خَطـبٌ أَو تُـدوفِعَ مَغـرَمُ
فَمَـنِ النَقِـيُّ مِـنَ العُيـوبِ وَقَـد غَـدا عَن دارِكُم وَمَنِ العَفيفُ المُسـلِمُ[3]

وقال يمدح أبا المغيث موسى بن إبراهيم أخا إسحاق بن إبراهيم، وكتب بها إليه:

إِنَّ الطَلاقَـــةَ وَالنَـــدى خَـــيرٌ لَهُـــم مِـن عِفَّـةٍ جَمَسَـت عَلَيـكَ جُموسـا
لَـــو أَنَّ أَســـبابَ العَفـــافِ بِـــلا تُقـــىً نَفَعَـت لَقَـد نَفَعَـت إِذاً إِبليسـا[4]

أي قد حصلت فيك العفة ولزمتك، وهذه خصلة يعود عليك نفعها إذ تتخلق بها، ولكن الطلاقة والندى يتعدى فضلها إلى غيرك، والعفة ليست كافية من دون تقى؛ لأن مثل هذا الأمر يتعبد به الله، وليس أحداً من الناس.

وقال يهجو عياش بن لهيعة، ويعيبه بأنه ساقط الهمة، لا أرب له في المعالي، والمعالي لا أرب لها في الساقطين، وأنه مشغول بانتهاب الدنيا، منشغل بجمعها، لا يبالي من أين جمعها،

(١) المرجع السابق، ٣/ ١٢١-١٢٦.
(٢) المرجع السابق، ٢/ ٦٥.
(٣) المرجع السابق، ٣/ ١٩٧-١٩٨.
(٤) المرجع السابق، ٢/ ٢٧٢.

ولذا وصف عرضه بأنه عرض سوء، وأنه نهبة للغادي والرائح:

عَيّـــاشُ مالَـــكَ في أُكرومَـــةٍ أَرَبٌ وَلا لِأُكرومَـــــةٍ في ســـــاقِطٍ أَرَبُ
ظَلِلــتَ تَنتَهِــبُ الــدُنيا وَزُخرُفَهــا وَظَلَّ عِرضُكَ عِرضُ السوءِ يُنتَهَبُ[1]

وقال يهجو عبدالله الكاتب، وكان يحبه:

قُـــل لِعَبـــدونَ أَيـــنَ ذاكَ الحَيـــاءُ إِنَّ داءَ المُجـــــونِ داءٌ عَيـــــاءُ
طالَمـــا كُنـــتَ قَبـــلُ عِنـــدي مَنيعـــاً وَمَصـــوناً كَـــما يُصـــانُ الـــرِداءُ[2]

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٤/ ص ٣١٤.
(٢) المرجع السابق ، ٤/ ص ٣٠١.

الخاتمة

وبعد: فقد أوضحت هذه الدراسة البحثية القيم الأخلاقية، ومدى عناية العرب بهذه الأخلاق، وإجماعهم على تقديمها وتقديسها، منذ وجد العرب، مع تقديم نماذج شعرية شاهدة من شعر أبي تمام، وهو أحد كبار شعراء العربية، مما أوضح اهتمام العربي بهذه القيم، وطربه لها، واعتزازه بها، مع بيان أن هذا البحث دارت مادته حول أصول الأخلاق، وما أجمع عليه علماء السلوك والأخلاق أو كادوا.

إن تناول مثل هذه الموضوعات القيمة بالدراسة يعزز وجود القيم الكريمة – التي جاء بعث نبينا محمد ﷺ متمماً لها – ويساعد على شيوعها، وإحلالها المقام الذي يليق بها.

إن المجتمعات الإسلامية بحاجة ماسة لتقديم هذه القيم مدعمة بجميل الشواهد، وطريف الأبيات ونادرها؛ لترسيخ كريم الأخلاق في المجتمع، والاعتزاز بتراثه وقيمه.

إن القيم القيمة التي تأصلت في النفس الإنسانية، هي التي تجعل لحياة الإنسان معنى كريماً، وتضع له هدفاً سامياً يسعى لتحقيقه في ظل نواميس معيّنة، سواء أكانت تلك القيم ناتجة عن عقله، أو خاضعة لأوامر ربه، ولولا وجود تلك القيم لما بلغت الإنسانية ما بلغته حتى يومنا هذا، فهناك معايير أخلاقية، وقيم كريمة اصطلح الناس عليها، وتحاكموا إليها، لها تأثير بالغ في الرفع من شأن الفرد أو الجماعة، وجماع هذه الفضائل العقل والشجاعة والعدل والعفة.

ويوصي الباحث بتسليط الضوء على القيم الأخلاقية في شعر العرب، وإبراز مكارم الأخلاق التي جاء الإسلام بتتميمها، وتقديم دراسات مستفيضة حول أصول الأخلاق وفروعها مع استدعاء الشواهد والمثل من أشعار العرب في مختلف عصورهم الشعرية، وتناول هذه المواد الشعرية بما يشبع نهم القراء ويروي غليلهم، فأشعار العرب تحوي مادة غزيرة من الفخر بمكارم الأخلاق والتمدح بها والثناء على ذويها.

المصادر والمراجع

إحياء علوم الدين، الغزالي، محمد بن محمد، ط:١، بيروت لبنان، دار المعرفة، ١٩٩٨م.

أخلاق الوزيرين، التوحيدي، أبوحيان علي بن محمد، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ط:١، بيروت لبنان، دار صادر، ١٤١٢هـ.

الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين، محمد عبدالعالي، ط:٣، الكويت، دار القلم، ١٩٨٥م.

الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، أبوحيان علي بن محمد، صححه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، ط:١، بيروت لبنان، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤هـ.

الأمالي، القالي،أبو علي إسماعيل بن القاسم، تحقيق الشيخ صلاح بن فتحي هلل، والشيخ سيد بن عباس الجليمي، ط:١، صيدا بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ.

البصائر والذخائر، التوحيدي، أبوحيان علي بن محمد، تحقيق د.وداد القاضي، ط:١، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ.

التذكرة الحمدونية، ابن حمدون، محمد بن الحسن أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي، ط:١، بيروت، لبنان، دار صادر، ١٩٩٦م.

ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، التبريزي، أبوزكريا يحيى بن علي، تحقيق محمد عبده عزام، ط:٤، مصر، دار المعارف، ١٩٥١م.

ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الزمخشري، محمود بن عمر، ط:١، بيروت، لبنان، مؤسسة الأعلمي، ١٤١٢هـ.

رسائل الجاحظ، الجاحظ، عمرو بن بحر، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط:١، القاهرة، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٦٤م.

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، ط:١، بيروت، لبنان، دار المعرفة، ١٩٧٢م.

العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، بيصار، محمد، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ١٩٦٨م.

عيون الأخبار، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، ط:١، مصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٣٨٣م.

الفروسية، ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن، ط:٢، حائل، دار الأندلس، ١٤١٧هـ.

القيم العربية الأصيلة من شعرنا القديم، مقداد، د.عبدالله جبريل، ط:١، الأردن، عمان، دار عمار، ١٤١٧هـ.

القيمة الأخلاقية، العوادي، د.عادل، ط:١، لبنان، بيروت، الشركة العربية للصحافة والطباعة والنشر، ١٣٥٨هـ.

كتاب التعريفات، الجرجاني، الشريف علي بن محمد، ط:١، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م.

كتاب الصناعتين، العسكري، أبوهلال الحسن بن عبدالله، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبوالفضل إبراهيم، ط:١، لبنان، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٠٦هـ.

لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري الرويفعى

الإفريقى، ط:١، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٦م.

محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني، أبوالقاسم الحسين بن محمد، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، ط:١، بيروت، دار صادر، ١٤٢٥هـ.

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أبي بكر، تحقيق محمد حامد الفقي، ط:١، بيروت لبنان، دار الكتاب العربي، ١٣٩٢هـ.

مدخل إلى علم الاجتماع العام، الصغير، مليحة عوني، والعمر، د.معن خليل، ط:١، العراق، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨١م.

معجم الأمثال العربية، شمسي باشا، منير الدين، ط:١، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٣هـ.

نقد الشعر، ابن جعفر، قدامة، تحقيق كمال مصطفى، ط:١، مصر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٨م.

الهوامل والشوامل، التوحيدي، أبوحيان علي بن محمد بن العباس، ومسكويه، نشره أحمد أمين والسيد أحمد صقر، ط:١، مصر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٥١م.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، تحقيق إحسان عباس، ط:١، لبنان، بيروت، دار صادر، ١٩٦٩م.